**من كتاب "فؤاد بطرس – المذكرات"**

# القسم الأول
# مع الأمير

## الفصل الخامس
# شهاب والشهابية

( كامل الفصل: صفحة 101– 107)

سوف يبقى فؤاد شهاب في مخيلتي ذاك المارد الذي اقترنت أحلامه ومواقفه واقتناعاته بأعمال ومشاريع ملموسة حاولت في مرحلة من الزمن وضع أسس ثابتة للبنان كدولة تؤمن تطلعات جميع أبنائه. تسلّم من سلفه زمام السلطة في البلاد وهي منقسمة ومشرذمة، تسودها أعمال عنف وأجواء من عدم الاستقرار. وسلّم خلفه دولة موحدة مستقرة قائمة على إدارة عصرية تحكمها ذهنية جديدة ويحركها حلم واقتناع بإمكانية تعايش سلمي بين المجموعات اللبنانية في تناغم وتسامح وتفاعل فتجعل من لبنان وطناً بكل ما لهذه الكلمة من معنى. قامت استراتيجية الرئيس شهاب خلال سنوات حكمه على المعادلة التالية: إشعار كل مجموعة لبنانية ان حضورها غير منتقص وان خصوصياتها مأخوذة بالاعتبار ومحترمة. وفي المقابل، تحترم المجموعات الدولة اللبنانية بكامل مؤسساتها ككيان وطني مترفع حيادي ومستقل يعمل في سبيل الخير العام. كان مدركاً ان ما يحاوله غير قابل للتحقيق بين ليلة وضحاها وانه يحتاج الى فترة طويلة لكي يصبح راسخاً في أذهان اللبنانيين وملموساً في سلوكهم. وقد قال يوماً: "انا لا اريد القيام بثورة لتغيير الوضع القائم لأني لا أريد العودة بالبلد الى الوراء، بل أهدف الى تغيير الأمور بصورة طبيعية وفي شكل تدريجي".

حاول الرئيس شهاب ان يشعر المسيحيين بأنهم يعيشون في دولة حرة، سيدة، مستقلة، لا يتدخل في شؤونها الداخلية أحد ولا تفرض عليها سياسة محاور تلزمها بالتقوقع وتجرها الى الحرب. منذ اليوم الاول لولايته، أضحت سيادة لبنان شبه هاجس تحكم بخيارات فؤاد شهاب السياسية كلها. وابتداء من اجتماع

الخيمة الشهير ورمزيته ودلالاته، تمسك بهذا التوجه ودافع عنه بطريقة ذكية جعلت الرئيس المصري جمال عبد الناصر لا يطلب من لبنان ما يطلبه من سواه من الدول العربية، وأعتقد ان عبد الناصر أدرك ان للبنان خصائص وطاقة محددة ليس بإمكانه ان يطلب اكثر منها. والفضل في ذلك يعود في اعتقادي بمعظمه الى فؤاد شهاب الذي عرف عبر تصرفاته السياسية ونزاهته وترفعه كيف يقنع نظيره المصري بأن يراعي الوضع اللبناني ويحترم حقه في حرية التحرك لا سيما في القضايا المتعلقة بالشؤون الداخلية، وكذلك في القضايا المرتبطة بالسياسة الخارجية بقدر ما هي خارج نطاق العالم العربي.

أذكر تحديداً كيف ان عبد الناصر تفهم موقف لبنان الذي لم يقطع علاقاته الدبلوماسية مع فرنسا إبان الأزمة الجزائرية، ولم يحاول ان يفرض رأيه بطريقة او بأخرى. ومن الأمثلة على تمسك الرئيس شهاب بسيادة لبنان وكرامة أبنائه ما أخبرني إياه اللواء أحمد الحاج عن طريقة وداع الرئيس اللبناني لنائب الرئيس الأميركي ليندون جونسون الذي زاره مطلع الستينات. إذ عندما خرج جونسون من مكتب الرئيس فوجئ الحاضرون ان الرئيس شهاب توقف عند عتبة باب المكتب ولم يرافق ضيفه الى أبعد مكتفياً بالقول: "وداعاً، حضرة نائب الرئيس". وتولى كبار موظفي القصر الجمهوري مرافقة الضيف الأميركي الى الخارج، فنظر الرئيس شهاب الى اللواء الحاج، وكان في حينه نقيباً، وقال له: "هذا نرافقه الى هنا فقط، لو كان الضيف الرئيس كينيدي لكنت رافقته الى الخارج. موقع رئاسة الجمهورية ليس ملكي إنه ملككم وعليّ ان أحافظ عليه من أجلكم".

في المقابل، تفهّم الرئيس شهاب نبض الشارع الإسلامي المتعاطف مع القضايا العربية الكبرى وفي مقدمها القضية الفلسطينية. والتزم خط التفاهم مع الرئيس عبد الناصر مجسد آمال الشعوب العربية وتوقها في حينه الى نهضة في وجه اسرائيل التي يدعمها العالم الغربي. فتمثل لبنان في جميع المؤتمرات المخصصة لتعزيز القدرات العربية وشارك فيها مشاركة فاعلة وحافظ دائماً على الالتزامات والقرارات على قدر ما كانت تسمح له إمكاناته بذلك مثل تحويل مياه الينابيع التي تصب في نهر الأردن وبحيرة طبرية وإنشاء مكتب مقاطعة اسرائيل وغيرها من الإجراءات.

على الصعيد الداخلي، أولى الرئيس شهاب المناطق النائية ذات الأغلبية الاسلامية اهتماماً كبيراً قد يكون الأكثر فاعلية حتى يومنا هذا، لاعتباره ان لا إمكانية لاستمرار السلم والاستقرار إن تعمقت الفوارق الاجتماعية بين اللبنانيين. ولطالما اعتبر ان من الصعب ان تطلب الدولة ولاء من لا تشعر بأنها مسؤولة عنه ومضطلعة بشؤونه ومهتمة بمشاكله ومصيره.

ومن المعروف انه في عهد الرئيس فؤاد شهاب ولدت معادلة 6 و6 مكرّر في الوظائف العامة، اي اعتماد المناصفة في التوظيفات، بعد ان جرى تطبيقها في الجيش اللبناني أثناء قيادته له، وكان المسلمون

قبل ذلك يشكون من طغيان العنصر المسيحي في الادارة ويطالبون بكوتا ثابتة لإنصافهم. لم تصل المسايرة للمسلمين الى حد التراخي، بل كان فؤاد شهاب يمارس صلاحياته كاملة وفق ما نص عليه الدستور. ولم يتساهل في الأمور الأساسية، ومن كان يتعدى حدوده اصطدم به.

حدود المراعاة للطوائف كانت تنتهي عند باب الادارة وبالتحديد عند بوابة مجلس الخدمة المدنية المدخل الوحيد لولوج الوظيفة العامة. لقد أراد فؤاد شهاب ان يبني دولة القانون بالمعنى الصحيح حيث تكون مؤسسات تعمل باستقلالية تامة ومن غير الارتهان لرجال السياسة او الطوائف فأنشأ وحصّن مجلس الخدمة المدنية، وديوان المحاسبة، وهيئة التفتيش المركزي. ولا أذكر، طوال عهده، ان قراراً واحداً لمجلس الخدمة المدنية او لغيره من الأجهزة تم نقضه او تجاوزه في مجلس الوزراء الذي كان يحرص بدوره على تعيين أناس موثوق بعملهم ونزاهتهم في هذه المناصب الحساسة. وكان الرئيس شهاب يجيب عندما يراجعه احد بقرار ما اتخذته هذه الهيئات، بالقول: "انهم يعرفون ما يقومون به". وفي مجالسه الخاصة كما في الاجتماعات الرسمية، كان يشدد على أهمية استقلالية أجهزة الدولة ويحض الجميع على احترامها معتبراً ان احترام المسؤولين للقانون هو ما يصنع هيبة الدولة وليس فقط احترام المواطنين له. وأذكر ان وزيراً ونائباً كسروانياً أعرب عن انزعاجه، على هامش أحد اجتماعات الحكومة، لأن قوى الأمن الداخلي حررت محضر ضبط بحقه في ساحة الشهداء لأن سيارته كانت متوقفة في مكان ممنوع، فانتفض الرئيس شهاب وقال له: "لماذا تحتج؟ تريد تطبيق القانون على الآخرين، ولا تريد تطبيقه على نفسك؟"

أما ما جعل أسلوبه في الحكم ساحراً، ومستقطباً للعديد من الشخصيات والفعاليات السياسية، فهو طبعه الشخصي الذي مهر طروحاته بخاتم الصدقية. كان فؤاد شهاب مارداً في الكبر، وعزة النفس، والوطنية، والنزاهة، لكنه في المقابل، لم يكن متعجرفاً، بل لطيفاً ومهذباً ومتواضعاً الى أقصى الحدود. تميّز بالتحفظ وبحفظ الحدود بينه وبين الآخرين، فلم يكن يعطي سره بسهولة. لم يكن خجولاً ولا وقحاً فظاً، كان يتكلم باتزان فيقول الحقيقة دون ان يجرح، ويحلّل الأمور بتروّ، وبعد نظر، وما لم يكن يعرفه وغير متأكد من معلوماته حوله لا يتكلم فيه إلاّ بعد ان يشبعه درساً. وفي ما خصّ علاقاته مع الناس، أظن ان تقويمه للأشخاص على وجه الإجمال لم يخطئ. ولم يتوقع من الإنسان أكثر من طاقاته وقلّما شعرت بأنه توهم او بالغ في توقعاته. عندما كنا نجلس معاً، كان يجري تقويماً لأداء الوزراء المشاركين في الحكومة، ولطالما اتسم تقويمه بالعدل والمنطق المعقول فكان لا يتهجم ولا يقسو عليهم. وفي الوقت عينه، لم يكن متساهلاً معهم. ومن مميزاته ايضاً التجرد، ومراعاة المبادئ القانونية بكل دقة، والتقشف فلم يحب السهرات والحفلات والدعوات على مختلف أنواعها، وكانت حياته أقرب الى التنسّك، حتى إنه دعي في وقت من

الأوقات، "ناسك صربا". وكان هاجسه الدائم ان يستفيد لبنان من تجارب دول العالم المتقدم وان يشغل مكاناً متقدماً في الأسرة الدولية.

باختصار شديد، تلك كانت ذهنية الرئيس شهاب واستراتيجيته في الحكم التي على أساسها نشأ عليها ما عرف بالنهج الشهابي او بالشهابية التي صارت، على الأقل بالنسبة الينا، نحن من آمنا بأسلوب عمل فؤاد شهاب، مذهباً في السياسة ومثالاً في الأخلاق والتجرد والترفع التي يفترض ان يتحلى بها كل وافد على الشأن العام. حاول أخصام الرئيس فؤاد شهاب ان يشوّهوا صورة عهده وان يلصقوا به زوراً انه كان عهد طغيان الأسلوب العسكري والمخابراتي على الحياة السياسية. ولكن أمانة للتاريخ لم ألمس يوماً ان الرئيس شهاب حاول ان يفرض طريقة تفكير العسكريين بل أراد ان يستوحي السياسيون من الحياة العسكرية روح الانضباط والالتزام والعمل الجماعي والتضحية من أجل بلدهم في وطن طالما اتصف سياسيوه بالمزاجية والانانية والشخصانية والتضحية بالوطن من أجل مصالحهم ومستقبلهم السياسي.

ولا أزال متأكداً من ان خريطة الطريق لبناء الدولة اللبنانية الحديثة والقوية والوطن الذي يعيش فيه جميع أبنائه في استقرار ورفاهية لا يمكن ان تكون إلاّ متطابقة مع تلك التي وضعها فؤاد شهاب والتزم بتطبيقها أثناء ولايته الرئاسية. نجح الرئيس شهاب في وضع الدعائم الصحيحة والمتينة لكن المشكلة ان رواسب أحداث العام 1958، والظروف التي سادت المنطقة في العصر الناصري، لم تسهل توطيد الوفاق الوطني الحقيقي. فبقي كل شيء سطحياً، واستمر التباين في العمق في المواقف والآراء حول المسائل الكبرى. حاول الرئيس شهاب دائماً ان يراعي هذا الوضع بانتظار ان تترسخ روح المواطنية عند اللبنانيين ويتعزز الشعور بالانتماء الى الوطن. كانت هناك رؤية ورغبة عند الحكم في كل ذلك، لكن الشعب لم يكن ناضجاً لهذا الأمر، فيما الطبقة السياسية، بوجه عام، التي كان يسميها "بأكلة الجبنة" لم تكن ناضجة وطنياً ولم تكن مستعدة للتضحية بالمصالح الشخصية والحزبية الضيقة في سبيل الخير العام ومستقبل البلاد. وأعتقد ان جوهر المشكلة تمثل بأمرين: قصر المدة الزمنية قياساً مع حجم الانجازات التي قام بها وخطط لها العهد، والتي كانت بحاجة الى المزيد من الوقت والظروف الملائمة كي تأتي بالثمار المرجوة، من جهة، وعدم قدرة النهج الشهابي على اختراق حواجز التعبئة الشعبية التي جعلت الناس يتفاعلون كجماعات طائفية لا سيما عندما غاب العنصر الناصري وطرحت سائل خلافية، من جهة ثانية.

وكثيراً ما كنت ولا أزال أتسأل ويسألني البعض من حولي: لو قبل الرئيس فؤاد شهاب بالتعديل الدستوري الرامي الى إعادة انتخابه، هل كان تمكن من تحصين لبنان ضد الأزمات التي عرفها بعد العام 1967؟ لا أدعي ان فؤاد شهاب كان وجد حلولاً لكل المشاكل التي وقعت تباعاً في لبنان خصوصاً انه لم تحصل مشكلة كان مصدرها الأساسي والوحيد لبنان بقدر ما انعكست التعقيدات الاقليمية على الوضع

اللبناني الهش والفاقد المناعة. فالظروف والمعطيات الموضوعية كانت ستؤدي الى النتيجة عينها تقريباً، أياً كان رئيس الجمهورية. ففؤاد شهاب لم يكن يمتلك العصا السحرية التي كانت وحدها كفيلة بإنقاذ الوضع اللبناني المتجه، منذ هزيمة العام 1967، بخطى متسارعة نحو الانفجار. ربما كان استطاع الرئيس شهاب، بشخصيته المتزنة وهيبته وتجرده، ان يخفف من حدة بعض الأمور او يربح وقتاً ويؤخر وقوع القدر المشؤوم الذي ما لبث ان ضرب اللبنانيين، وأن يحول دون الأسوأ الذي عانينا منه في بعض المراحل.

لم يعرف الرأي العام اللبناني فؤاد شهاب في الخمسينات والستينات حق المعرفة. اما أجيالنا الطالعة فلا تعرف الكثير عن هذا الرجل الذي كانت له يد بيضاء في محاولة بناء الدولة اللبنانية وتحقيق الحلم اللبناني وترسيخ وطن يأخذ فيه كل مواطن من أبنائه حقه كاملاً من غير منة رجل السياسة وزعيم الطائفة ووساطة نافذ. وسيبقى النهج الشهابي مدرسة في الوطنية، والتجرد في سبيل الخدمة العامة، والانتماء الى لبنان من غير ان يبدو هذا الانتماء تخلياً او تنكراً لهوية او ذاكرة او تراث او إيمان، ولكنني أتساءل عما بقي من إنجازاته.

كم من مرة، في هذه الأيام، أتذكر فيها فؤاد شهاب مترحماً ومتحسراً. وحين أفكر فيه وأقارن أداءه وإنجازاته بأداء بعض من شغلوا مناصب رفيعة في الدولة منذ ذلك الحين، أشعر بالخيبة. كان تقديري له كبيراً خلال الفترة التي عملت فيها الى جانبه. ولكن بعد كل هذه السنوات، أستطيع القول، بكل ثقة، إنني لمست لمس اليد أنه أكثر المسؤولين تمتعاً بوضوح الرؤية في مجال فهم الواقع اللبناني واستنباط مشاريع حلول للمشاكل التي تطرحها التعددية الطائفية والثقافية والحزبية والاجتماعية. وفي استعراض لكل العهود الرئاسية منذ الاستقلال الى يومنا هذا، نجد أن الرئيس فؤاد شهاب هو الرئيس الوحيد الذي باشر مشروعاً واضحاً لبناء الدولة وتحديثها واستمر بتنفيذه وصيانته بترفع وإيمان ومواظبة حتى الدقيقة الأخيرة من عهده على أمل توطيد الركائز التي يقوم عليها الوطن، كما سعى للمجيء بحلف يمضي قدماً في عملية استكمال تنفيذ المشروع.

وأود أن أختم هذا الفصل بفحوى حديث جرى بين الرئيس شهاب وبيني في أحد الأيام لدى استعراضنا الطاقات الوطنية لبعض أفراد الطبقة السياسية والمعايير التي يعتمدونها في عملهم، فكانت النتيجة أننا عجزنا عن إيجاد جواب عن السؤال التالي: "أين السياسيون الذين إذا ما اصطدمت مصلحتهم الخاصة بالمصلحة العامة يعطون الأفضلية للثانية؟"

إن فؤاد شهاب يستحق أن يصنّف في طليعة رجال الدولة، وهؤلاء قلة في لبنان. وإذا أردنا اختصار ما يؤهله لهذا المقام نقول إنه عمل في سبيل لبنان الغد والأجيال القادمة مزاوجاً بين الواقع والحلم معتمداً

التخطيط في الحقلين الاجتماعي والاقتصادي، مما حدا بالبعض الى القول إن فؤاد شهاب هو من أدخل الهم الاجتماعي الى السراي في لبنان بعدما كان غريباً عنه.

كان فؤاد شهاب جندياً من جنود الجمهورية، وأحد أنصار الديمقراطية، وربما جعله إيمانه بالمؤسسات يتألم من عيوبها وتقصيرها، ويتمنى بشدة أن يراها تتكيف، في نطاق الشرعية المؤسسة، وإجماع الأغلبية، مع مقتضيات التطور في عصرنا. وكان الرجل يخفي وراء تحفظه المطبوع بالحياء مروءة قلّ نظيرها، وكان الجذاب، الوفي، الصادق، الشديد الاحتشام والشهامة، الذي يتجنب غالباً الكشف عن دخيلة نفسه. بفضل نمط تفكيره وأجوبته الفولكلورية الحاضرة. فكان على محدثيه إدراك ما يستأثر باهتمامه، واكتشاف ما يشعر به. وقد حاول ذلك الكثيرون ولكن لم يفلح إلا من كان ذا حدس سليم. ولطالما افتخرت بأني كنت في عداد القلة التي كان لها حظ ان تكون من معاوني رئيس كبير للجمهورية، بشهادة خصومه قبل أصدقائه، هو فؤاد شهاب.